المصدر: مجلة كلية الملك خالد العسكرية
التاريخ : ١ سبتمبر ٢٠٠٤

القرصنة البحرية بين الأمس واليوم

بقلم- محمد ياسر منصور

تبدو القرصنة في الوقت الحاضر هي التهديد الرئيس في بحار العالم، وقد تزايدت منذ عشر سنوات حتى الآن أعمال قرصنية تدل على تفاقم هذه الظاهرة، ولا سيما في بحار جنوب شرق آسيا، لكن التزايد المستمر لأعمال القرصنة ا لذي بلغ نحو (٣٣٥) عملية في العام ٢٠٠١م، لا يمكن أن يجعل المجتمع الدولي يقف موقف اللامبالاة من هذا التهديد، لذا بدا لنا من المجدي الرجوع إلى تاريخ القرصنة بدلاً من الرجوع إلى تاريخ الإرهاب البحري، وهو ظاهرة أحدث عهداً من القرصنة.

إذا أردنا استعراض الأعمال القرصنية كلها لاستغرق منا ذلك وقتاً طويلاً، لأن أعمال القرصنة لم تتوقف عبر التاريخ، وسنقتصر في دراستنا على قراصنة العصور **القديمة** ثم نعرج على أعمال القرصنة الحديثة.

تعريف القرصنة البحرية

تُعرّف القرصنة عادةً بأنها الجرائم أو الأعمال العدائية، والسلب أو العنف المرتكبان في البحر ضد سفينة ما، أو طاقمها، أو حمولتها.

ويُعرّف القرصان بأنه المغامر الذي يجوب البحار لنهب السفن التجارية.

القرصنة في البحر المتوسط

على الرغم من المصادر المتفرقة والمتناثرة، فما من شكّ في أن القرصنة طوال العصور القديمة، برزت بشكل مستمر في البحر الأبيض المتوسط، حيث كانت هناك بعض المدن المزدهرة مثل صور وقرطاجنة وكورنثه (في اليونان) وأثينا، والتي كانت ذات أساطيل وتجارة بحرية غنية، وكان لابدّ من القضاء على تلك الجماعات الخارجة على القانون من قراصنة وعصابات وأعداء. ومن أجل ذلك، وللصراع ضد القرصنة جهزت المدن الإغريقية أول الأساطيل الحربية، غير أن النتائج ظلّت دون المستوى المطلوب، لكن الامبراطورية الرومانية تمكنت وهي في أوج قوتها من القضاء مؤقتاً على تلك الظاهرة.

ظهرت القرصنة في البحر الأبيض المتوسط في الألف الثالث قبل الميلاد، وفي أثناء نمو التجارة البحرية المكثفة بين مصر وجزيرة كريت وفينقيا. وكانت القرصنة بشكل مجموعات من البحارة تعيش على سواحل صقلية، وتهاجم السفن المنفردة والموانئ ذات الدفاعات الضعيفة. وكان سكان جزيرة كريت هم أول من فكر بالتصدي لهؤلاء، فجهزوا أسطولاً سار إلى أقصى نقطة من شرقي الجزيرة (جزيرة صقلية)، ومهمته طرد القراصنة، وتمكنوا من إحراز

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

نجاح نسبي، ثم جاء بعد ذلك دور مصر الفوعونية، ولأول مرة في التـــاريخ، تجهز أسطولاً حربياً صغيراً للصراع ضد القراصنة الذين ينهبون سفن البحـــر الأبيض المتوسط ومدنه.

وهكذا نجد في العام (١٢٢٢) قبل الميلاد أن المصريين تمكنوا من التصـــدي لهجوم قرصني على دلتا نهر النيل قبل أن يخوضوا في العـــام (١١٩٠) قبـــل الميلاد أول معركة بحرية سجّلها التاريخ على سواحل سورية الحالية، وفـــي أثناء القتال استخدم بحّارة الفرعون رمسيس الثالث من رماة السهام ســـلاحاً جديداً وهو السهام أو النبال وبفضل هذا السلاح تمكن المصريون من هزيمـــة القراصنة، غير أن هذا النصر المصري لم يضع نهاية للغارات التي بدأت تأخذ شيئاً فشيئاً شكل الغزوات. وكان القراصنة يهاجمون الأراضـــي في العمـــق فينهبون المواشي والجواهر والمحاصيل، ثـــم يأســـرون الرجـــال والنســـاء والأطفال ويبيعونهم كالعبيد، وكانت القرصنة تتطلب شروطاً أساسية لقيامهـــا، منها: توافر الغابات لصنع السفن، ووجود ورشات لصناعـــة تـ لك السفـــن، ووجود أيد ماهرة لصناعة السفن المتينة القوية التسليـــح، ووجـــود أســـواق لتصريف البضائع المستولى عليها.

بعد بضعة قرون جاءت إلياذة هوميروس، لتكـــون بـــدورها صدى للنشـــاط المستمر في ازدهار شواطئ بلاد الإغريق الممتدة على مسافات شاســـعة، إذ نستشف من قراءة الإلياذة أن ثروة ملك إسبارطة "مينيلاس" الزوج التعيـــس للجميلة "هيلين" تكوّنت في أساسها من السلب والنهـــب، كمـــا أن الأوديســـة تكشف أن "أوليس" الذي كان يملك الأراضي الشاسعة، وملك إيتاكا الشهير كان أيضاً قرصاناً في زمانه؛ وهكذا نجد أنه عندما غادر طروادة بعد عشر سنوات من الحصار، لم يعد رأساً إلى إيتاكا، على الرغم من اشتياقه إلى زوجته وابنه تليماك، ذلك أنه قرر مع رجاله أن ينهب إحدى مدن تراقيا، ثم يشـــن غـــزوة على الشواطئ المصرية.

وبدءاً من القرن الثامن قبل الميلاد انطلق الفينقيون والإغريق بدورهم لإنشاء تجارة بحرية نشطة، وأنشأوا لذلك مستعمرات في جميع أرجاء حوض البحـــر الأبيض المتوسط، والتنافس بينهما دفع شعبيهما إلى اللجوء إلـــى ممارســـة القرصنة. وابتداءً من القرن الخامس قبل الميلاد، فرضت أثينا سيطرتها على العالم الإغريقي، وتسلمت مهمة مكافحة القرصنة. وبفضل جهود أثينـــا التـــي خصصت باستمرار أسطولاً مؤلفاً من (٦٠) سفينة اختفت القر صنة، لكن ها عادت في القرن الرابع قبل الميلاد عندما تفككت امبراطورية أثينا لتعيث فساداً في المنطقة من جديد.

في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد، شجعت النزاعـــات الثلاثـــة الرئيســـة الناشبة بين الرومان والقرطاجيين، على تنشيط أعمال القرصنة، وبين العامين (٢٦٤) و (١٤٦) ق.م، استعانت القـــوات المتحاربـــة علـــى نطـــاق واســـع بالقراصنة، ولا سيما الرومان.

في القرن الأول قبل الميلاد، وعندما دخلت روما في صراع لا ينتهي ضد ملك

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

بونت للسيطرة على آسيا الصغرى، وجد الملك "ميتريدات" نفسه مضطراً للتحالف مع قراصنة صقلية، الذين كانوا يمتلكون أسطولاً يزيد تعداده على ألف سفينة خفيفة وسريعة ومعدّة للهجوم والفرار. وبفضل هذا الدعم تمكّن ميتريدات من التغلغل في الأراضي الإغريقية، واستولى على أثينا وعديد من الجزر في بحر إيجه، ولما أصبح ميتريدات هذا الجنرال الروماني دكتاتور روما عام (٨٢) قبل الميلاد، قرّر تطهير سواحل صقلية من القراصنة التي تقيم فيها، وبعد تركه السلطة استمرت الهجمات المضادة للقرصنة وسجّلت فاعلية نسبية، والحملة التي قادها "بيبليوس سرفيليوس فاتيكا" بين العامين (٧٨) و (٧٤) قبل الميلاد لاقت نجاحاً جزئياً، ولا سيما أن القراصنة الذين طردوا من كيليكيا لجؤوا إلى كريت وصقلية وكالابر والبحر الأدرياتيكي. وفي العام (٧٢) قبل الميلاد، عندما نزل "ماركوس أنطونيوس" بقواته في جزيرة

كريت، كان الأسطول الروماني الذي تحت إمرته يغرق في قاع البحر من قبل القراصنة، والأسوأ من ذلك أن القراصنة كانوا يهاجمون السفن القادمة إلى روما المحمّلة بالقمح والقادمة من صقلية ومصر، وأصبحوا يشكّلون خطراً على الجمهورية الرومانية التي كانت تعاني أزمة خطيرة.

لم تتأخر ردّة الفعل الرومانية، ففي بداية العام (٦٧) قبل الميلاد، قرّرت روما تعيين دكتاتور للبحار، ووضعت تحت تصرفه وسائط وسلطات استثنائية بهدف القضاء على القرصنة في حوض البحر الأبيض المتوسط كله، وسارت الاستعدادات سيراً حسناً، وكان مركز قيادة الأسطول في مدينة بومبي. وخلال بضعة أشهر تمّ بناء نحو (٥٠٠) سفينة، وحشد نحو (١٢٥،٠٠٠) رجل، وبهذا يمكن للعملية أن تبدأ في نهاية الربيع وفي زمن قصير، وبفضل جهود لم يسبق لها مثيل، وتنظيم دقيقٍ محكم (وحدة القيادة وفرض حصار على مضيق جبل طارق ... إلخ)، تمكن دكتاتور البحر من القضاء على قواعد القراصنة واحدة بعد الأخرى في السواد الأعظم من البحر الأبيض المتوسط. وفي الخريف، كانت حملة بومبي قد توّجت بنصر مؤزّر، فقد تم أسر أكثر من (٣٦٠) سفينة للقراصنة وتدمير زهاء (١٠٠٠) سفينة أخرى أثناء القتال، وقتل (١٠،٠٠٠) قرصان، بينما أُسر نحو (٢٠،٠٠٠) منهم، وبذلك أصابت بومبي عصفورين بحجرٍ واحد، فهي لم تسيطر على البحر الأبيض المتوسط فحسب، بل قضت أيضاً على أعمال القرصنة فيه، وعاش البحر في سلام من القرصنة حتى سقوط الامبراطورية الرومانية في نهاية القرن الخامس بعد الميلاد، حيث عادت القرصنة إلى الظهور فيه.

عادت القرصنة اليوم للظهور

التاريخ يعيد نفسه، فعلى الرغم من التقدم الحضاري الكبير في العالم، وعلى الرغم من وجود منظمات دولية ومحاكم وقوانين دولية، ووسائط رصد

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

ومراقبة فائقة القدرة، وطيران سريع وأسلحة فعّالة، عادت أعمال القرصنة البحرية لتطفو على السطح من جديد، ولا سيما بعد هجمات القرصنة التي يشهدها جنوب شرق آسيا، علاوة على القرصنة قرب السواحل الإفريقية منذ بداية التسعينيات، فالقراصنة يجوبون البحار بحريّة، وينهبون السفن المارة بقوة السلاح غالباً، ويضربون عرض الـ حائط بسيادة الدول والقوانين، والقانون الدولي للبحار لا يمنح صلاحيات كافية للسفن الحربية والجهات المختصة من أجل مقاومة القرصنة، وكذلك قوانين الدول التي تجري قرب سواحلها أعمال القرصنة.

انتباه: هذه المناطق خطرة

يجوب البحّارة المعاصرون جميع البحار تقريباً التي غالباً ما تنتشر فيها حركة تجارية نشطة، لكن بعض المناطق بشكل خاص يشكّل بؤرة مناسبة لنشاط أعمال القرصنة، ونذكر منها: غرب إفريقية، ومدخل البحر الأحمر، وأمريكا اللاتينية، ولاسيما جنوب شرق آسيا (راجع الخريطة).
حتى إن كانت القارة الإفريقية تضم نحو ربع الهجمات في الـ عام (٢٠٠١م)، فإن القرصنة تظل متمركزة في مواقع معيّنة قرب شواطئ بعض البلدان مثل: نيجيريا، وساحل العاج، والصومال، وجيبوتي.
وشكل القرصان الإفريقي متبدّل جداً، فقد تجد اللصوص الصغار ذوي الطرائق البسيطة والتسليح المحدود والذين يستغلّون مرور السفن، وقد تجد أيضاً عصابات حقيقية منظمة، وتتألّف أحياناً من عسكريين قدامى، ينتقون فرائسهم من بين المراكب التي تنقل بضائع قيّمة. والقرصنة في جنوب أمريكا مسؤولة عن مقتل الملاح "بيتر بلاك" في العام (٢٠٠١م)، وتتمركز على طول السواحل البرازيلية وفي جزر الكاريبي (سان دومينغو، هاييتي) وحول قناة بنما، كما توجد جماعات قرصنية محدودة في أمريكا الوسطى وكذلك في المرافئ الكولومبية والإكوادورية أو الفنزويلية.

القرصنة في آسيا

مما لا يقبل الجدل، أن القرصنة تعبّر عن نفسها أوضح تعبير في أسيا، حيث يُرتكب ثلثا أعمال القرصنة. وأرخبيلات أندونيسيا وماليزيا والفلبين، وحتى مضايق مالاقا وسنغافورة، تشكل المناطق الموبوءة الرئيسة. وإلى عهد قريب أيضاً أصبحت السواحل الصينية على القائمة السوداء، لكن دخول الصين إلى منظمة التجارة العالمية أسهم فى الحدّ من عدد الهجمات فى العام (٢٠٠١م)،

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

حيث حدث هجومان فقط، ولمّا كان جنوب شرق آسيا يتمتع بجميع الشروط الملائمة لأعمال القرصنة، فليس من المستغرب أن تحدث فيه فقط ٥١% من حالات القرصنة في العالم في العام (٢٠٠١م). ففي هذه البقعة تعبث القرصنة فساداً، خدمةً للمافيات الصينية والأندونيسية، وثمة هجمات خطرة تحدث أيضاً جنوب شبه القارة الهندية، قرب السواحل الهندية وسواحل بنغلاد يش وسريلانكا.

طرق القرصنة

وحيثما تحدث أعمال القرصنة، فإنها تتبع طرائق متماثلة، حيث أُمكن لمنظمة الملاحة الدولية وضع جدول لها، فهي تحدث في الليل غالباً فيتسلّق القراصنة متن المراكب من أطرافها أو مؤخراتها، مستخدمين الكلاَبات أو العصي الطويلة البسيطة أحياناً، ولا يهمهم حجم المركب أو سرعته، وكثيراً ما شوهدت حالات سطو على ناقلات النفط أو السفن التجارية حاملة الحاويات الضخمة الحجم أو السفن السياحية المخصصة للنزهات. والمهاجمون المعتادون جيداً على سلب السفن التجارية يستغلّون عموماً مناورات الملاحة أو تخفيف السرعة، أو انشغال أفراد الطاقم كله عند المضايق والممرات الضيقة أو في قاعة الآلات لتنفيذ أحد الأعمال. وقد يحدث أحياناً أن يتسلل بعض شركاء القراصنة إلى السفن وهي راسية في الميناء ويختبئون فيها، ثم يظهرون فجأة والسفينة في عرض البحر لمد يد العون "لزملائهم" القراصنة القادمين في زوارق سريعة. والمهاجمون على علم تام عموماً بهندسة السفن وطبيعتها وقيمة حمولاتها، الأمر الذي يؤكد أنهم يتعاونون مع شركاء في البرّ، وحتى مع السلطات المرفئية.

وثمة طريقة أخرى للقرصنة، وهي إنزال زوارق صغيرة من سفن "أم" كبيرة الحجم، لتسير إلى جوارها أو بالقرب منها، والجميع مطفأ الأنوار، بهدف الانقضاض على الفريسة على حين غرّة.

الأساليب التي تسلكها القرصنة

حددت منظمة الملاحة الدولية ثلاثة أشكال للأعمال التي ينفّذها القراصنة وهي:

١. السلب باستخدام أسلحة خفيفة:

وهي سرقات صغيرة باستخدام السلاح، وغالباً ما تُرتكب في الموانئ أو على مقربة من السواحل ضد الصيادين أو المتنزهين في البحر. وتعرّف منظمة الملاحة الدولية ذلك النوع من السلب على النحو التالي: "هجوم انتحاري يقع

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

علي طول السواحل، وتنفذه مراكب قوية جداً يقودهـا مجرمـون ولد صوص مسلحون في البحار، وهم عادة يحملون السكاكين وأهدافهم عموماً السيولـة النقدية، ولا سيما في الصناديق الحديدية الموجودة في كـل مركـب، وكذلـك الأغراض الشخصية غالية الثمن، والتي يبلغ ثمنها وسطياً بين (٥٠٠٠) و (١٥،٠٠٠) دولار". وهذا النوع من القرصنة هو الشائع وتزيد نسبته على ٧٠ % من الحالات.

٢. السرقة والاعتداء المسلّح المتوسط بخطف أو من دون خطف:

ويقصد بذلك: "هجمات عنيفة وسرقات تسفر عن جـروح خطـرة أو سـقوط قتلى، وتنفذها عصابات منظمة جيداً، وهي عادة مسلحة تسليحاً ثقيلاً، وتعمل لحساب مركب "أم"، مستفيدة عموماً من شركاء على البرّ متـواطئين معها. وهذا الشكل من القرصنة يمثل خطرا شديدا على الملاحة، ولا سيما عندما يتم تحييد الملاحين وشل حركتهم أو حجزهم.

٣. الاختطاف الإجرامي الخطير:

وهو فعل خطير يتم فيه ارتكاب جرم الاختطاف، حيث يستولي القراصنة علـى المركب، ثم يعمدون إلى تمويهه أولاً، ثم تسجيله باسـم مـزوّر؛ وحمولتـه تختطف أو تقذف بالبحر حسب نوع شبكة المافيا، وتسمّى منظمـة الملاحـة العالمية مثل هذه الظاهرة بأنها: "تقنية المركب الشبح"، كما تحدد المنظمة هذا النوع من القرصنة بأنه: "أنشطة إجرامية دولية مخططـة، وتحـت تصرفهـا موارد هامة، وتستخدم عصابات هامة من رجال مـدربين جيـداً ومسلحيـن تسليحاً ثقيلاً، وعلى استعداد تام لاستخدام الأسلحة النارية"

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية